

الواقع - التمرد - الاسطورة

في رواية « من اكون في اعتقادكم »

مهدي النجار

هنا الاسطورة تستهدف الانسان لتأصيل انسانيته ، وهي ما دأب غارودي على تسميتها في ماركسيته للقرن العشرين : « الاسطورة الحققة » ، المتضمنة انفلاتا مزدوجا من الطبيعة الخارجية ومن طبيعتنا نحن . او بتسمية أخرى : « الاسطورة المفتوحة » ، التي توجهنا نحو المركز الخلاق في ذاتنا وتفتح لنا آفاقا دائمة الجدة وتساعدنا على تخطي حدودنا ، أي تلك الحكاية الرمزية التي تذكر الانسان بحقيقته ككائن خلاق !

وإذا حاولنا أن نعزو الى رواية « من اكون في اعتقادكم » هدفها النهائي فاننا سنكتشفه مشتركا بين أهداف أساطير الدين وحكايات التاريخ ، أي بتعبير هيفل : تمثيل ما يجيش في النفس البشرية تمثيلا عينيا ومشخصا .

ومن هذا التمثيل عينه تتولد « قوة الاستنهاض » في الاسطورة ، هذه القوة التي تحضر المستقبل باعتباره خميرة الحاضر .

ليس الحاضر خميرة المستقبل بعكس كل الاساطير « المظلمة » ، « المفلوكة » ، وانما المستقبل هو خميرة الحاضر .

والآن : كيف دخل غارودي الى المستقبل ليحضر « الاسطورة » خميرة الحاضر ؟

هكذا بحركة شاقة ، جدلية ، حركة ذهاب وإياب دائمة بين : الواقع - الحلم ، الخاص - العام ، الشاهد

« أتراجع لأتأمل عملي وحياتي . انني لا أرى بعد المسيح مسمرا على عموده ، مجتذبا بين ذراعيه الناхلتين ألم البشر كلهم . هناك حيث يموت ابن الانسان سيولد عالم جديد . لقد قهر الموت وتراجع الضيق . وإذا بالفرح ، فرح النشور الخالد ، ينفجر في صرخة انتصار » (ص ٢٣٩) .

التمرد الفوضوي - على حد تعبير غارودي - أو الاحساس الميتافيزيقي بالذنب لم يقودا « كافكا » الا الى أحلام الهروب من « الدائرة اللعينة » ، دائرة العالم المعاش وصراعاته .

من نفس هذه الدائرة اللعينة التي تسمر المسيح مجتذبا بين ذراعيه الناхلتين ألم البشر كلهم ينشأ التمرد ، ولكن بين هذا التمرد وذاك ، أي بين تمرد « غارودي » وتمرد « كافكا » ، توحد وانفصال ، توحد في الحلم وانفصال في الاسطورة ، توحد في الواقع وانقطاع في الهدف .

التمرد هناك ينشأ مسكونا بالموت والقهر والاستسلام والهروب ، بينما ينشأ هنا مسكونا بالنبض والتحدي والفرح والامل ليتفجر أخيرا عند ضفاف أسطورية ، حلوة ، عذبة ، مشمسة بالحب ، متوحدة فيها « أنات » الجميع . أسطورة فيها الحياة لا تشكل الا وحدة مع مبدئها .

✱ « من اكون في اعتقادكم » - رواية - تأليف روجيه غارودي ترجمة : د. سهيل ادريس ط. دار الاداب - بيروت ١٩٧٨

ملاحظة : وردت شواهد اثناء قراءتنا لروجه غارودي اعتمدناها من كتابه : « ماركسية القرن العشرين » - ترجمة نزيه الحكيم - دار الاداب ، بيروت ١٩٦٨ ، « واقعية بلا ضفاف » - ترجمة حليم طوسون - دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

– الفائب : البعد الانساني الشقي – البعد الانساني
المفارق . الذات المتفردة – الجماعة .

لنضع ايدينا على البدء :

« ولد في أعماقي ، قاتل ، جذور عنف تجتاحني .
وفي ذراعي وساقني حاجة الى الضرب . في صدري
وفي فمي ، همهمة وحش ينقض » ، وفي رأسي حلم
التدمير والسحق آتاء الليل وأطراف النهار » .

هذا البدء لا يطاق ، كيف تتحملة الذات ؟ ولكن
هي ذات بشرية من لحم ودم ، تشبه ذوات أخرى بدأ
ينمو العنف فيها مبكرا لتصير أخيرا صورة كاملة
للعداء . تضم في أعماقها أحلام التدمير والرعب
والعنف والتحطيم . يقطعها السأم عن كل حياة ، يصنع
منها نبتة تذبل ، نبتة جافة ، روحا جافة .

هذه الذات وما تتضمنه ولدت من رحم « الدائرة
اللعينة » . وشربت من حليبها .

الدائرة اللعينة . ذات الاجهزة الكابتة والسلطات
القمعية احتضنتها وأشبعتها بكل شيء ولم يكن بها
جوع للحياة بعد الا جوع الانتقام !

والآن ، قبل كل شيء – وبأي لون أو ثمن –
يجب أن تخرج هذه الذات المشبعة بالسأم من تلك
الدائرة اللعينة ، الدائرة التي تمركزت فيها شهوة
الريح ، راسمة في ازدحام البشر الفوضوي تخطيط
الارصفة ومكاسر الامواج والمتاجر والساحات والبورصات
والمصارف والمستودعات والسكك الحديدية وتكنات
الفيالق العسكرية وأقبية الاستجوابات التعذيبية .

وللمرة الاولى ، تنفلت هذه ذات – وهي غريبة
عن كل انفلات – بطرق شقية ومنحرفة ، لتغمرها
السعادة ، سعادة الانفلات فقط .

وتظل الذات « المسعورة » تنطلق بكل قوتها ، بكل
طاقتها نحو الاشياء .

هكذا فقط : الانطلاق !

في هذا الانفلات ذاته لم يخمد التناقض الاساس :
الحب البشري والعداء المصنوع من دماء الدائرة
اللعينة . ولكن العداء يستحوذ ليصنع من الحب وجها
كريها وفعلا تدميريا قاتلا :

« حين كنت أبدا بحب شخص ما أو شيء ما ، لم
أكن أستطيع احتمالها ، كان ينبغي أن أنتزعه ، أن
أحطمه » .

تتكون لحظات حب رهيبية لا يمكن احتمالها
تستبدل بالتدمير .

أذن فان الانفلات غايته النابتة في الجذور : أفعال
التدمير .

كان تبضيع « المرضة » الفعل الاول .
وكان قتل جندي « الفرقة الاجنبية » الفعل الثاني .
وكان استنزاف دم « الراهب » هو الفعل الثالث .

أفعال التدمير تلك هي عنف العالم كله وقد
تمخض عن النفس « المنفلتة » ، فقط لكي توجد .

استبدل التفكير بالفعل التدميري : أدمر أذن
أنا موجود .

« لكي أدلل على اني كنت حيا ، لم أكن أستطيع
أن أعطي الحياة بل الموت » .

ولكن ليس ثمة خوف أو رهبة من فعل التدمير .
ان هذا الفعل يبدو عاديا ، سمجا ، تافها ، كأي
فعل آخر .

ان الخوف ، القلق ، يبدأ من الانفلات نفسه ، من
الانفصال عن أحضان الدائرة اللعينة ، من النبذ عن
الجماعة ، أي عندما تواجه الذات نفسها وحيدة . هنا
تحسّ بالخوف . لذا يبدأ فيها شوق عارم للاحتضان ،
للارتباط بالجماعة ، أي جماعة : منحرفة ، اجتماعية ،
روحية ، سياسية .

وتحمل الريح القوية الذات المنفلتة ، عبر أسفار
ومدن الى جزيرة الجوع . ليس هروبا من القتل وانما
نحو الجماعة :

في هذه الجزيرة « سيد واحد يملك هذه الارض
كلها : الجوع . ومعه جيش وشرطة في خدمته لوقوف
تمرد الذين لا يطيقون بعد أن يصارعوه » .

وفي الجزيرة يدخل الانسان « المتوحد » الجماعة ،
جماعة « الحب » ، جماعة النضال ضد الجوع .

لم يذهب غارودي بعيدا عن وحدة التناقض التي
لمسها في « الدائرة اللعينة » وانما يؤصلها لصالح
أسطورته .

كان قد قتل العدائية في ذروة قبجها ، في
لحظات الانفلات اللاواعي من السأم ، صور ما يجيش
في النفس البشرية في لحظات تفردتها من عدائية هي
مخاض لعدائية العالم نفسه .

ويعود الآن ناقلا هذه « الذات » القاتلة نفسها الى
الجماعة لتمارس فعل الحب : النضال ضد الجوع .

كانت تدخل في الآخرين ويدخل الآخرون فيها
كماء متدفق !

هكذا يتم النقل : من التمرد العدائي الى تمرد
الحب . وهذا التمرد الجديد يتعدى الالم نفسه ليتحول
الى تحديات وانذارات :

الجماعة تتميز بانسانيتها من خلال فعلها الذي يظهر كمشروع للحب :
« أن نحب جميع الناس ، فهو أن نحرر المساكين من عبوديتهم والاغنياء من القدرة على الاثم » .

ولا شك ان مفهوم روجيه غارودي لمشروع الحب، التحرر ، الثورة ، يتمركز حول الايمان ، وخاصة ذلك الايمان المسيحي ، تلك الرغبة المسيحية المصلوبة من أجل الآخرين ومن أجل التحرر ، ومحكوم بندايات النحام الانسان مع « فعله » ، مع الرب ، الالتحام مع المفارقة الالهية ، ولكن هذه « المفارقة » ليست محمولا من صفات الله بل هي بعد من ابعاد المسيح «الانسان» . اننا امام تمثّل رائع لاسطورة ايمانية تحمل امكانية قيام انسان جديد ، عالم جديد .

ان الجماعة تتحرك بايمان حار ، تدفعها نداءات الكاهن بقوة لا تقهر :

« اذكر زمن عبوديتك .
سأجعل العميان يسلكون طريقا مجهولا وسأشوق الصخرة لتنبجس منها المياه » .

كانت تضحية الكاهن شحنة الجماعة « المناضلة »
القليلة ، الضعيفة ، المتمزقة .

وتصبح الطبيعة كلها حليفة للجماعة : انها تبسط قواها بمقدار الرهان : الحرية والحياة .

والجماعة تناضل وتتطوع دائما للموت وبها يقين بأن الايمان أن يعيش المرء مع الآخرين ، أن يعيش للآخرين ومن أجل الآخرين .

هكذا يبحث غارودي عن الشعلة الاصلية تحت رماد الايمان البارد ويحول الصوت التوراتي الى صوت ايماني تأثر :

« هذا غير صحيح ! ليس لاحد الحق بأن يقول لمن يموت : « الله يحبك » اذا لم يفعل شيئا لتغيير مصيره » .

وتمشي الجماعة المتوحدة ، الملتحمة نحو الضفاف « الاسطورية » عبر طرق الابداء الوعرة ، تخبر الكثير ، تتمزق ، تحترق اجسامها و ارواحها ، تستلب . لا تمتلك أي شيء تعطيه سوى الموت ، موتها الجماعي ، وتحسّ أثناء ذلك بشعور من الامتلاء ، بفرح خفي . ينايبس تتفجر داخلها .

لم يبق من الجماعة الا تلك « الانا » التي رأيناها أول الامر حابطة ، قاتلة . والان تقاد الى الجزيرة لتحاكم ؟!

من الآن فصاعدا يتوضح تشكيل الاسطورة . الانتقال من التأصل الديني الى التأصل الدنيوي . من التمرد الايماني الى التمرد الثوري .

على جزيرة الجوع وضع مضطرب : « اضراب عام ! ليس كالاضرابات الاخرى . ليست القضية قضية رواتب حتى ولا قضية تلوين الهواء . كانت كلمة السر : « ضد التلوين السياسي » ! » .

كانت مناشيرهم تهيج السكان : « قل لي أية طاقة تستعمل ، أقل لك أي مجتمع يهينون لك ... الطاقة الذرية المركزية تقودنا الى نظام بوليسي » .

« الذات » المولودة في دائرة الواد والقمع ، « الدائرة اللعينة » ، تقاد الى المحكمة عبر الاضراب «الاسطوري» لتصبح ذات رمز ، ذات نبي ! ومحاکمتها تصبح رمزا . وفي محاكمتها محاكمة مجتمع برمته ! وتجري المحاكمة بجو مشحون بالغضب والتدفق نحو عالم جديد .

قضاة « الدائرة اللعينة » يحاولون أن يمسخوا قضية « الجرم » ويحولوها الى مجرد قضية عادية ، هذيان ، يحاولون نزع « الانا » من مسؤوليتها عن حياتها .

ولكن اصرار « الانا » على الاحتفاظ بنفسها ، عن مسؤوليتها كاملة ، تستنهض الناس وتفجر أعماقهم . - « لن يستطيع مجتمع حقيقي أن يبني نفسه الا باسم هذه الحياة الاكبر . ان حريتك يا ابن الانسان ، ستملا السماء . ولكن فور نهوضه ، فليمش ! من منكم ؟ من ؟ » !

على الجزيرة المضطربة تداع وقائع المحكمة بتضخيم اسطوري ، توقظ ، تجبر الناس على التساؤل .

تتحول المحكمة من قضية « الانا » الى قضية « الكل » . بل أكثر من قضية او انقلاب ، الى فعل خلق جماعي ، وتتحول « الذات » القاتلة ، الميتة ، الى « ذات » حية ، نبية ، تقود الجماعة . وتتساءل عندما يتعلق جميع سكان الجزيرة بأذيالها :
« أين تراني سأقودهم ؟ وأين ترى هذا يقودني ؟ » .

هل يقف غارودي في فنه عند حد الاستنهاض والايقاظ ، عند حد النقل من الواقع الى التمرد ؟ لا . بل يواصل . يريد أن تتكلم رسالته عما فيه الناس وعن حركتهم وعما يفتقدونه ويصبون اليه .

ينبغي العودة الى البدء قبل الانتقال الى الضفاف الاسطورية في النفس الغارودي .

هذه العودة هي عودة لذلك القول السالف نطمح فيها أن نلتقط رسما مركزا لمحاوّر الرواية التي يؤسس غارودي عليها ضفافه ، وسنرتكب شائنة في العمل الفني إذ سنهشمه لاستخراج محاوره وهذا فيه عذر لاجل الكشف :

● محور الواقع :

« اللماذا » شحنة رهيبه من التمرد أخطر ألف مرة من ألف رصاصة تدمير . تفجر حدود النمطية ، حدود السجن ، تفلش أقبية الاستجواب التعديبي ، توقظ عبثية كل ما كان وكل فعل - تضع الجماعة في حضرة صورة مميتة عن نفسها .
تنهض « اللماذا » عارية ، لا هواده فيها . يستحيل اخضاعها للصمت .

يبدأ فيه كل شيء مبكرا جدا . ربما في السادسة من العمر ، انه صورة العنف الاولى ، الساذجة جدا ، التي لا تزال تلاحق « الذات » وتكبر معها . هذا الواقع هو الذي أسميناه : بالدائرة اللعينة بكل ما تحويه من أجهزة كابتة ومجهضة .

● محور التمرد :

المرحلة الرابعة : تمرد الثورة المتفجر عن « اللماذا » الداركة . لحظات من النشور وأيام القيامة .
عودة حاملة : من اللاوعي الى الوعي . من الغائب الى الشاهد . من الهروب الى الحضور .
عودة متفجرة : من الخاص الى العام ، من التفرد الى الاسرة ، من الفوضى الى النظام ، من العدائية الى الحب الاعظم :
« أية مغامرة ! هل تصورني ، انا المتسكع ، الفوضوي وعلى ذراعي طفلان ، ابا لأسرة ؟ » .
طفلان يولدان من جديد ، ليشكلا عالما جديدا . عالم الاسطورة .

التناقض الاساس داخل « الانا » . فمثلما ولد الواقع صورة العنف الاولى داخل « الانا » اي القطب العدائي ، فان الحب المتأصل عند البشر هو الآخر ينمو كقطب نقضي للقطب العدائي . ومن خلال هذا التناقض يتفجر التمرد بعدة اتجاهات ومراحل :

● محور الاسطورة :

من ذاك وعلى محور التمرد بكل مراحلها يبدأ غارودي ببناء خلاق لعالم ما زال في الضفاف الاخرى . يبحث عن اطوار تكوينه في مأساة البشر وآلامهم ومآسيهم ورفضهم وتمردهم ، متقبا عن ايقاعه الداخلي ومشاركا في انشاء ذلك الايقاع .

المرحلة الاولى : تمرد التحدي . التمرد اللاواعي . مجرد ضد ، ضد السام بكل الاتجاهات وضد كل الاتجاهات . انفصال عن النظام (القتل ، التدمير) عودة منحرفة الى الجماعة (عصابة مخدرات) :
« بادىء ذي بدء حين دخلت العصاة بدافع التحدي : ضد ابي ، ضد امي ، ضد المحرمات . دائما ضد ودائما وحدي » .

نسيج من عالم متخيل جديد ، يصنعه غارودي ويراد من خلال الحركة والتذكر والحلم والامل والخوف . هذا النسيج الاخاذ ، نسيج العالم المخلوق من جديد وبكيفية جديدة ، فيه تتوضح معالم الانسان وأبعاده الخلاقة وتتأصل انسانيته .

المرحلة الثانية : تمرد الايمان ، تمرد فوضوي على الواقع واحتجاج عليه ، يتشذب تدريجيا ليصبح دعوة مسيحية « خالصة » . المسيح ييرا « الانا » من أمراض السام ، يدعوها الى « المفارقة » ، الى السمو .
صوت الرب يدعو « الذات » لتكون الرب ذاته . (هذه الجدلية أساس عند روجيه غارودي في حوار مع المتدينين :

من لمحة العالم القديم نفسه تحدث ولادة ثانية لعالم زاه ينبض فيه الفرح :
« أترى سيكون من الممكن صنع عالم يخلق فيه البعض البعض الآخر ؟ هذه قضية أخرى . ولكن اذا حدث ذلك ، فسيكون على الأرجح عالما يشبه هذه الزهرة : ستكون ثمرة شمس لا تنفد ، ولن يحاول أحد أن يكبر على حساب الآخرين بل يستمد حاجته من هذه الشمس » !

x كيف التحدث عن الانسان من غير التحدث عن الرب الذي يسكنه ؟
x اننا مصلوبون وانما انطلاقا من القبر يبدأ « البعث » ...) .

هذا التمرد الجوهرى هو الذي يضع « الانا » أمام (الحرية) وعلى عتبة الاختيار الصعب لكشف نفسها ، لكشف « الاله » الذي يسكنها :

« ليس هناك من جواب آخر ممكن . ان على كل انسان أن يختار أمام الموت ما الذي سيفعله كل منا بحريته ؟ يكشف الرب الذي يحمله في داخله ؟ » .

المرحلة الثالثة : تمرد الاسئلة ، تمرد الوعي ، اذا جاز لنا أن نسميه تمرد « اللماذا ؟ » .

« أتراكم تعرفون فقط ما عسى يكون الانسان ؟ ذلك الذي لا يكتفي بأن يعيش كما تعيش شجرة أو كلب ، وانما يتساءل : « لماذا ؟ » .

بفسداد

